وطننا يصنع المعجزات

نعم يا دكتورة نعمات! وطننا يصنع المعجزات، ولكن متى؟ لم يصنعها إلا وهو حر لنفسه خالص لبنيه..

صنعها قبل احتلال قمبيز؛ وهو يصنعها اليوم بعد جلاء الإنجليز. صنعها قبل الاحتلال الفارسي سنة 525 قبل الميلاد فثقف العلم من غير تلقين، وابتكر الفن من غير مثال، وشرع الدين من غير وحي، وأنشأ الحضارة من غير سابقة، واشتق الكتابة من غير أصل، ثم اعتقد الخلود فصنع المعجزات لتحقيقه: خلد الجسد بالحنوط والتماثيل والأهرام، خلد النفس بالصور والمحاريب والمعابد، وخلد الذكر بالمسلات والقصور والخط. ثم جعل نفسه رسولا للشمس يرسل أشعتها في كل أفق، ويبعث حرارتها في كل حي. فكان وطننا هو المنارة الأولى التي سرى على هديها ركب الخليقة، والمنبع الأول الذي نبتت على كوثره حضارة العالم.

وهو اليوم يصنع المعجزات بعد الجلاء البريطاني سنة 1956، يصنعها بإقامة السدين العاليين في وقت واحد: يقيم السد العالي الاقتصادي في جنوب أسوان ليحول بيننا وبين الفقر، فيزيد رقعة الأرض الزراعية مليوني فدان، ويرفع الدخل القومي السنوي 355 مليون جنية، ويقيم السد العالي السياسي في شمال بور سعيد ليحول بيننا وبين الاستعمار، فلا يدنس سرى الوادي دخيل، ولا يكدر ماء النيل واغل.

وكان وطننا الذي تغنيت بمجده يا دكتورة نعمات في مقالك الشعري الجميل بين حلول قمبيز ورحيل الإنجليز نهبا للغزاة والمغيرين من كل جنس ومن كل أرض، تعاقبوا عليه بالقهر والفقر فأخمدوا في رأسه النبوغ، وأماتوا في نفسه العزة، وربطوا يديه ورجليه وعينيه بالأرض فلم يعرف سماء فيها الروح والرفعة، ولا أن وراءها حدودا فيها الطموح والأمل.

وظل شعبنا الكريم العنصر 3483 سنة على هذا الحال الأليمة، يعمل بعضله كالعبد، ولا يتصرف بعقله كالسيد، حتى تعطلت قواه الروحية والذهنية فلم يستطع في خلالها أن يخلق بطلا ولا أن يصنع معجزة !.

إن أشرق الصفحات في تاريخنا القديم صفحات الراقد في (الرمسيوم) الماثل في ميدان محطة القاهرة رمسيس الثاني، ومنذ انقضى عهده تضيفت شمسنا للغروب فدب إلينا في الظلام اللوبيون من الغرب، ثم الأحباش من الجنوب، ثم الأشوريون من الشمال، ثم الفرس من الشرق، فثلوا عرش فرعون وسلبوه ملك مصر. ثم دجا الليل وطال حتى نسينا النور وضللنا طريق الحياة.

وإن أشرق الصفحات في تاريخنا الحديث صفحات الجالس على كرسي الجمهورية، الماثل في كل قلب من القلوب المصرية، ووصل ما قطعه المغير من تاريخنا الحر، تنفس الصبح، واستفاض الضوء، واستبان الطريق، فملأنا الوجود، وحللنا الصدر، وشغلنا الناس، وتهيأت للوطن أسباب القوة فخلق البطل وصنع المعجزة !.